أنواع الأمكنة ودلالاتها في رواية (أيام شداد) لمحمد مفلاح

أ. إبراهيم بن طيبة

يكتسي المكان في الدراسات السردية الحديثة والمعاصرة أهمية جمة، بوصفه أحد العناصر الأساسية التي يتشكل منها العمل الروائي، ناهيك عن البعد الفني والجمالي الذي يضفيه عليه، ذلك أن المكان في رواية اليوم ليس مجرد ديكور تقع فيه الأحداث، وتتحرك فيه الشخصيات، وهذا ما يُخرجه من مفهومه النظري الضيق، ليكسبه أدوارا فعالة قوامها التأثير في سَيْرِ الأحداث، ورسم معالم الشخصيات وبنائها والتأثير عليها.

احتل المكان في رواية (أيام شداد) لمؤلفها محمد مفلاح حيزا لا بأس به، وقد تراوح في مجمله ما بين المكان المغلق والمكان المفتوح، مع ما لكل منهما من دلالات وإيحاءات وأبعاد رمزية، تؤكد على القصدية من استخدامهما وتوظيفهما على هذه الشاكلة التي ارتآها المُؤَلِّفُ، وهذا ما سنعكف على تبيانه في هذا المقام.

قبل الحديث عن أنواع الأمكنة ودلالاتها في النموذج الروائي قيد الدراسة، حري بنا أن نعرج على مفهوم المكان لغة واصطلاحا حتى نكون على بينة من هذا العنصر الذي ننوي تسليط الضوء عليه، وقد تعددت تعريفات المكان من الناحية اللغوية في معظم المعاجم، نذكر من جملتها ما جاء في لسان العرب لابن منظور: «المكان بمعنى الموضع، والجمع أمكنة وأماكن، قال ثعلب: يبطل أن يكون مكان، لأن العرب تقول: كن مكانك، وقم مكانك، فقد دل هذا على أنه مصدر من كان أو موضع منه.»١، ويقصد به الموضع الذي يشغل مساحة معينة، تُستغل في وضع الأشياء، أي أنه الحيز أو المساحة التي تُستخدم في وضع أشياء مختلفة.

ويذهب ابن سيدة إلى أن المكان: «جمع أمكنة، فعاملوا الميم الزائدة معاملة الأصلية، لأن العرب تشبه الحرف بالحرف، كما قالوا منارة، ومنائر، فشبهوها بفعالة وهي مفعلة من النور وكان حكمه ناور»٢، وهذا دال على أن المكان جمعه أمكنة، ذلك لأن العرب تشبه الحرف بالحرف مثل منارة ومنائر، ولذلك جاء جمع المكان هو أمكنة.

اعتبر الكوفي المكان بمثابة «الحاوي للشيء المستقر، كمقعد الإنسان من الأرض، وموضع قيامه، واضطجاعه، هو (فعال) من التمكن، لا مفعل من الكون، كالمقال من القول، لأنهم قالوا في جمعه أمكن، وأمكنة، وأماكن.»٣، ويتضح لنا من خلال هذا التعريف أن المكان هو الموضع الذي يعيش الإنسان فيه ويتطور، وأنه مشتق من مادة (كون)، وأنها الجذر الحقيقي للمكان، الذي يكون جمعه أمكنة أو أماكن.

وقد تناول القرآن الكريم كلمة (المكان) في غير ما موضع، فنجدها مثلا في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾٤، فالآية هنا تدل على معنى الموضع، كما نجدها أيضا في قوله تعالى: ﴿فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾٥، وهذا دال على أن المكان هو الموضع أو الحيز، كون الشيء وحصوله أي أنه المساحة التي يستغل فيها وضع أشياء معينة.

أما ابن دريد فقد توسع في عرض مفهوم المكان من وجهة نظر مختلفة، وتحت مادة (كمن) وليس (مكن) حين قال: «كمن الشيء في الشيء، وكمن يكمن كمون، إذا توارى فيه، والمكان: مكان الإنسان وغيره، والجمع أمكنة، ولفلان مكانه عند السلطان: منزلته، ورجل مكين من قوم مكناء عند السلطان.»٦، وبهذا يكون ابن دريد قد عد لفظة المكان محتواه في مادة (كمن) الدالة على الإحاطة، فأشار إلى المفهوم الواقعي لها، ثم أشار إلى المفهوم المجازي بدلالتها على المنزلة العالية ضمن لفظة (مكانة).

وجاء الزبيدي بمفهوم أوسع للفظة، معتمدا على أراء المتكلمين، مفاده أن «المكان الموضع الحاوي للشيء، وعند بعض المتكلمين أنه عرض، وهو اجتماع جسمين حاو ومحوي، وذلك ككون الجسم الحاوي محيطا بالمحوي، فالمكان عندهم هو المناسبة بين هذين الجسمين، وليس هذا بالمعروف في اللغة»٧، وهذا يعني أن المكان هو الحيز والموضع الذي يحمل الشيء، أي

أنه الموقع الذي يقع فيه الحدث ، ولهذا قرب الزبيدي المفهوم اللغوي للمكان من المفهوم الاصطلاحي له .

في حين يذهب ابن بري إلى أن «مكين: فعيل، ومكان: فعال، ومكانة: فعالة، ليس شيء منها من الكون، فهذا سهو، وأمكنة: أفعلة، وما تمكن فهو تفعل، كتمدرع مشتق من المدرعة بزيادة، فعلى قياسه يجب في تمكن لأنه تفعل على اشتقاقه لا تمكن، وتمكن وزنه تفعل، وهذا كله سهو وموضوعه فصل الميم من باب النون.»٨.

وعليه فالأرجح أن يكون المكان مشتقا على وزن مفعل من الكون كموضع، وليس فعال من التمكن، لأن (كون) جذر ينطوي على دلالة الإخبار عن حدوث شيء، وكونه تكوين أحدثه الله تعالى مكون من العدم إلى الوجود، ومنه فالمكان جمع أمكنة، وجمع الجمع أماكن، وهو مفعل من الكون.

إذا انتقلنا إلى المفهوم الاصطلاحي للفظة (المكان) ألفينا لها الكثير من الدلالات، وقد اقتحمت العديد من الميادين المعرفية، فقد وجدت هذه اللفظة صداها في مختلف الميادين العلمية والأدبية، فقد أكد علماء الفيزياء مثلا «على كون المكان متحركا، وذلك خلاف نظرية أرسطو فيه، وأثبت هذا الرأي كل من نيوتن وأينشتاين، هذا الأخير الذي أكد على نسبيته»٩.

ويمكن القول أيضا إن المكان «غير ثابت لإمكان تأثره بالجاذبية.»١٠، وبهذا يكون المكان عند الفيزيائي ذاتيا لا واقعيا، بخلاف ما ذهب إليه بعض الباحثين من أن المكان يمكن أن يكون هندسيا، فهو «واسع غير محدود يشتمل على أشياء، وهو متصل ومتجانس لا تميز بين أجزائه، وذو أبعاد ثلاثة هي: الطول والعرض والارتفاع، وإذا جُمِعَ بين الزمان والمكان في تصور واحد، نشأ عنهما مفهوم جديد هو المكان الزماني، وله أربعة أبعاد هي: الطول والعرض والارتفاع والزمان.»١١.

ولم يكن اهتمام الجغرافيين بالمكان أقل من اهتمام غيرهم، حتى أن الأمريكي ألكبو قد عرَّف الجغرافية على أنها «علم المكان من حيث خصائصه وعلاقاته.»١٢، وهذا يعني أنه قد ربط الجغرافية بالمكان واعتبرها العلم الذي يختص بدراسته، لأن المكان يتحدد من خلال حدوده الجغرافية، ومن حيث الخصائص والعلاقات المرتبطة به.

وقد عرفها دولا بلاش -زعيم المدرسة الجغرافية الفرنسية- على أنها «علم المكان لا الإنسان»١٣. وعموما فإن الجغرافيين وإن اختصوا بدراسة المكان لكنهم اعتنوا كثيرا بمحتواه، مما أدى إلى شيوع استخدام مصطلح البيئة الجغرافية أكثر من المكان الجغرافي.

تحيز بعض النقاد لمصطلح المكان على أساس أنه الوحيد الذي يمكن الإمساك به، ورسم معالمه وتحديده جغرافيته، والواقع أنهم انطلقوا في ذلك من الدراسات الغربية في هذا المجال، فهناك هندسة المكان (Architecture) أي جمالية المكان التي تتأتى من تشكيله ضمن الفضاء الروائي، حيث يُشَارُ في هذا السياق إلى مؤلَّف باشلار Bachelard (جماليات المكان)، الذي قارب فيه الفضاء الروائي والجماليات المتاحة له، والتي من شأنها أن تزيد في جمال التشكيل الروائي.

أما علماء النفس فيؤمنون بأن «حقيقة المكان النفسية تقول إن الصفات الموضوعية للمكان ليست إلا وسيلة من وسائل قياسه، تسهل التعامل بين الناس في حياتهم اليومية.»١٤، وبهذا التقديم لمفهوم المكان تتضح أهمية استخدامه وشيوعه، كما له مساس بوجود الإنسان، ومتعلقاته الشيئية، فضلا عن رؤيته الخيالية والذاتية.

اتخذ المفهوم الاصطلاحي للمكان بعدا فلسفيا مع الفلسفة اليونانية، ويعد أفلاطون أول من صرح باستعمال المكان اصطلاحيا، «إذ عده حاويا وقابلا للشيء»١٥، أي أن المكان في مفهومه هو الموضع الذي يكون حاملا لأشياء معينة، وبعد أفلاطون أخذ الاهتمام به في تزايد، حيث اعتبره أرسطو ثالث خمسة أشياء مشتملة على الطبائع كلها، وهي «العنصر، والصورة، والمكان، والحركة، والزمان، وعَدَّ المكان عرضا لا جوهرا.»١٦. ويمكن أن نستنتج في مفهوم المكان أنه الحدود الداخلية غير المتحركة للشيء، حيث يُعَدُّ المكان الموقع أو المساحة التي تشمل أحداث ووقائع معينة.

ومصطلح المكان من المكونات الأساسية للسرد وليس عنصرا زائدا فيها، إذ يكون في بعض الأحيان الهدف من وجود الرواية أو العمل الفني جميعا، فهو يعتبر «الخلفية التي تقع فيها أحداث الرواية.»١٧، وهذا يعني أنه الموضع أو الحدود الجغرافية التي يقع فيها العمل الروائي، أي المجال الذي تسير فيه الأحداث من تحولات على مستوى أقوال الشخصيات وأفعالها.

كما يمكن القول أيضا إن «مكان الرواية ليس هو المكان الطبيعي، فالنص يَخْلُقُ عن طريق الكلمات مكانا خياليا، له مقوماته الخاصة وأبعاده المميزة.»١٨،

بمعنى أن المكان الروائي ليس معتادا كالذي نعيش فيه، ولكنه مكان تخيلي غير واقعي يتشكل عن طريق اللغة الروائية، فيحقق المؤلف باللغة عالمه الروائي بكل تصوراته، وتمنحه الحرية الحق في تشكيل فضائه بعيدا عن كل القوانين الهندسية، بمشاركة الشخصيات ووظائفها المختلفة.

ويعد المكان بمثابة الأرضية المناسبة والخصبة للشخصيات والأحداث، فهو «عنصر حي فاعل في هذه الأحداث، وفي هذه الشخصيات، إنه حدث وجزء من الشخصية»١٩، مما يعني أن المكان هو عنصر أساسي في العمل الروائي، لعلاقته القوية بالشخصية وبالحدث في حد ذاته، فهو يعتبر حدثا وجزءا من الشخصية.

والمكان «هو الذي يؤسس الحكي في معظم الأحيان، لأنه يجعل القصة المتخيلة ذات مظهر مماثل لمظهر الحقيقة.»٢٠، فالمكان في العمل القصصي أو الروائي لا يمكن الاستغناء عنه بأي حال من الأحوال، لأنه لا يمكن أن نتصور وجود حدث في زمان ما بمعزل عن المكان، حتى وإن لم يكن هذا المكان حقيقيا، فمجرد أن يسرد المؤلف الأحداث ينتقل إلى عوالم الشيء، ويستطيع حينها أن يخلق مكانا خياليا لأحداثه، يكون له دور أساسي كبقية العناصر الأخرى لعملية السرد، ويعد الإطار الذي تنطلق منه الأحداث، وتسير فيه الشخصيات، بل يتجاوز ذلك ليصبح عنصرا حيا وفعالا في بناء الأحداث، إذ تكون الشخصيات مشحونة بدلالات تكتسبها من خلال علاقاتها بالإنسان، فللمكان علاقة حميمة مع الإنسان كونه بمثابة الجسد الذي يحتوي الروح، وكل منها يؤثر في الآخر، وكما يقول عثمان بدري فإن أكثر الأماكن التي يتعلق بها الإنسان هي البيت، حيث جاء في قوله: «إذا وصفت فقد وصفت الإنسان»٢١، ذلك لأن البيت يعتبر الموقع والمركز الأساسي الذي يحوي كل إنسان.

والمكان عند غاستون باشلار ليس المكان الهندسي، وإنما هو «المكان الذي عاشه الأديب كتجربة، والمكان لا يعاش على شكل صور فحسب، بل يعاش في داخل جهازنا العصبي كمجموعة من ردود الأفعال.»٢٢، فالمكان الروائي يعبِّر عن مقاصد المؤلف وعن تجربة عاشها في ذلك المكان وتأثره به، فيتحول المكان الحقيقي إلى فضاء روائي جرت فيه أحداث الرواية، حيث يقوم الروائي بتجسيد هذا الحيز المكاني الذي عاش فيه تجربته الحقيقية في عمل فني إبداعي، كما أن المكان بدوره يؤثر ويتأثر بالعناصر الأخرى المشكِّلة للعمل الروائي.

وإضافة إلى هذا، فقد عالج حميد لحميداني مسألة المكان في الرواية العربية بدراستها، متطرقا إلى مجموعة من المصطلحات المتعلقة بالمفهوم، مثل: «المكان الروائي، والفضاء الجغرافي، والفضاء الدلالي، والفضاء النصي، والفضاء بوصفه متطورا.»٢٣، ثم أبدى ميله إلى عنصر المكان، مذهب جل النقاد المشتغلين على الرواية، لما في هذا المصطلح من شمولية أوسع، كونه « يشمل المكان بعينه الذي تجري فيه أحداث الرواية، بينما مصطلح الفضاء يشير إلى المسرح الروائي بأكمله، ويكون المكان داخله جزءا منه.»٢٤، وهذه النظرة قدمت لنا فصلا بين الفضاء والمكان، فالفضاء يقتصر انطلاقه من اللامحدودية، أي من الأجواء التي لا سيادة فيها، والتي تأخذنا إلى مسرح الخيال بعيدا عن الواقع، في حين المكان منحصر في موقع جغرافي أو مسرح للأحداث والحركة والشخصيات، «فالمكان والفضاء على النحو الذي يعنيه المصطلح الأخير في اللغة الفرنسية، يغطي المجالات الأرضية والسماوية»٢٥.

إن المكان هو المجال الذي تسير فيه أحداث الرواية من تحولات على مستوى أفعال الشخصيات، ومن رؤية السارد التي يحددها من خلال عالمه الإنساني الذي يبنيه، والمواقف المختلفة التي تنبثق منه، والقانون السائد في هذا العالم والنظم المتعددة التي تحكمه، ذلك أن المكان هو المدى الذي يحقق فيه الراوي كل تصوراته بارتباط عناصر الرواية، فأهميته لا تقتصر على المستوى البنائي، بل تتعداها إلى مستوى الحكاية (المدلول)، حين يخضع الإنسان للعلاقات الإنسانية، والنظم لإحداثيات المكان معتمدا على اللغة، «لإضفاء الإحداثيات المكانية على المنظومات الذهنية، والاجتماعية، والسياسية، والأخلاقية، مما يسهم في تجسيدها، ويجعلها أكثر فهما وقبولا لدى المتلقي، وهذا التبادل بين الصور المكانية والذهنية يتمدد لالتصاق المعاني الأخلاقية بالإحداثيات المكانية، والتشبع من ثقافة المجتمع وحضارته»٢٦، حيث يمنحنا فضاء خياليا عن طريق اللغة التي تُبرز لنا هذه العلاقات الفضائية، وقدرته على خلق جمالية للمكان ومشاركة المتلقي فيه، ذلك أن الروائي في نصه يخلق عن طريق الكلمات مكانا خياليا له مقومات وأبعاد مميزة، وعن طريق اللغة يحقق الراوي عالمه الروائي وتصوراته، وتمنحه الحرية

في تشكيل فضائه بعيدا عن كل القوانين الهندسية بمشاركة الشخصيات ووظائفها المختلفة، ولذلك فإن أهمية المكان ليست في ذاته، وإنما لما يؤديه من وظائف يسخرها الأديب خدمة لمبتغاه.

إن المكان لا يظهر في الرواية ظهورا عشوائيا، وإنما يتم اختياره بعناية فائقة، إذ له دور في إضفاء الصنعة المتقنة على النص، والمكان «يمكن أن يكون غرفة أو بيتا أو مدرسة، وقد تصاحب وصف الكاتب له مشاعر بالنسبة للأشخاص، ليكون لدى الشخصية مكان أليف يشبه المنزل الذي يقضي فيه الإنسان طفولته، فيتوق إلى العودة إليه، وقد يكون هذا المكان فضاء لا يمكن إغلاقه كالشارع، والصحراء، والمدينة، أو متنقل كالسفينة.»٢٧.

ينقسم المكان على قسمين: المكان المغلق، وهو المكان الذي حُددت مساحته ومكوناته، كالمكان الذي نعيش فيه ونسكن ونبقى فترات طويلة من الزمن، «فهو المكان المؤطر بالحدود الهندسية والجغرافية، التي تكشف عن الألفة والأمان، أو قد يكون مصدرا للخوف والرعب.»٢٨، وهذا يدل على أن الأماكن المغلقة عبارة عن موضع أو موقع له حدود، يمكن أن تكون واسعة، كما يمكن أن تكون ضيقة، مع تميزها بالدفء والألفة والمحبة، أو العكس، يكون الخوف والرعب فيها حسب طبيعة الأفراد الموجودة هناك، كما أنها تكتسي طابعا خاصا من خلال تفاعل الشخصية معها، ومقابلتها لفضاء أكثر انفتاحا واتساعا.

ويمكن القول أيضا عن الأماكن المغلقة بأنها «أماكن الإقامة الاختيارية، كالمنزل، أو الكوخ، أو أماكن الإقامة الجبرية، كالسجن، وقد تتفرع منها أماكن أخرى، كونها مغلقة، فقد يكون قصرا أو منزلا أو غرفة صغيرة، فليس لأحداثها علاقة بصغر أو بكبر المكان.»٢٩، وهذا يعني أن الأماكن المغلقة تتنوع وتختلف حسب اختيارات الشخص، فقد يكون هذا المكان قصرا أو منزلا صغيرا أو كوخا، وقد يكون صغيرا أو كبيرا، وكل هذا حسب اختيار الفرد وإحساسه فيه، والاختيارات والإحساسات تختلف من شخص إلى آخر.

من الأماكن المغلقة –في إطار الأعمال الروائية– التي شاع استعمالها نذكر: البيت، وهذا الأخير كما هو متعارف عليه يعد المسكن أو المأوى، وهو البنية الأساسية للعمران البشري المتمثل في مجموع القرى ومجموع المدن، ولأن البيت «ليس مجرد مكان نحيا أو نسكن فيه، وإنما هو جزء من كياننا ووجودنا الإنساني.»٣٠، فإن باشلار قد جعل له جسدا وروحا، واعتبره عالم الإنسان الأول الذي يتيح له أن يحلم.

ويذهب البعض أيضا إلى أن البيت «واحد من أهم العوامل التي تدمج أفكار وذكريات وأحلام إنسانية، فبدون البيت يصبح مفتتا»٣١، وهذا يعني أن البيت أو المأوى ضروري لكل فرد، وبدونه يصبح الإنسان مشردا وهائما، وعرضة لكثير من الأخطار، لذلك يسعى ويعمل كل ما يستطيع من أجل أن يوفر لنفسه هذا المأوى ويقيم في مكان ثابت، رغبة منه في توفير الأمن والاستقرار للذات.

وعلى الرغم من تعدد التسميات التي يحظى بها البيت واختلافها في الأعمال الروائية، كالمنزل والشقة، والدار، فإن هذه التسميات تلتقي جميعا لتؤكد دلالة واحدة، مفادها أن «المكان لابد منه لضمان استقرار الفرد وإثبات وجوده، فهو خلية يتجمع فيها أفراد العائلة كلها، حيث يمارسون بشكل تلقائي علاقاتهم الإنسانية.»٣٢، وهذا معناه أنه ضروري وأساسي من أجل استقرار الفرد.

يعرف الشريف حبيلة الأمكنة المغلقة بقوله: «هي التي ينتقل بينها الإنسان ويشكلها حسب أفكاره، والشكل الهندسي الذي يروقه ويناسب تطور عصره، وينهض المكان المغلق كنقيض للمكان المفتوح، وقد تلقف الروائيون هذه الأمكنة وجعلوا منها إطارا لأحداث قصصهم ومتحرك شخصياتهم.»٣٣، أي أن الأماكن المغلقة تكون حسب رغبة الفرد وميوله، فهو الذي يختارها ويختار تصميمها الهندسي الذي يعجبه، وعلى حسب هذه الرغبات والميول ينتقي الروائي الأمكنة التي تساعد الشخصيات وتناسبها.

أما الأمكنة المفتوحة فتعد أماكن عامة تغيرها الشخصيات وتجري في خضمها، ذلك لأنها «تعد مسرحا لحركة الشخصيات وتنقلاتها، وتمثل الفضاءات التي تجد فيها الشخصيات نفسها كلما غادرت أماكن إقامتها الثانية، مثل: الشوارع، والأحياء، والمحطات، وأماكن لقاء الناس خارج بيوتهم، كالمحلات، والمقاهي.»٣٤ ، وهذا دال على أن الأمكنة المفتوحة هي عكس الأمكنة المغلقة، فالمفتوحة تكون واسعة وغير محدودة، وليست ضيقة، فهي تشمل كل ما هو خارجي ومطلق موجود في الأرض، أي أنها تشمل كل ما هو خارج عن إطار المكان المغلق، كالشوارع، والأحياء، والجبال، والغابات... وغيرها من الأماكن المفتوحة والواسعة التي ينتقل فيها الفرد ويسير.

والمكان المفتوح هو حيز مكاني خارجي

لا تحده حدود ضيقة، ويشكل فضاء رحبا، وغالبا ما يكون إطار الأماكن الطبيعية في الهواء الطلق، فالأماكن المفتوحة تكتسي أهمية بالغة في الرواية، إذ تساعد على «الإمساك بما هو جوهري فيها، أي مجموع القيم والدلالات المتصلة بها.»٣٥، وهذا يعني أن للأماكن المفتوحة فاعلية التأثير في مجريات الرواية، حيث يستخلص القارئ من خلالها جوهر الحكاية، لما يوجد من علاقات ودلالات متصلة بينها وجوهر الحكاية.

ومن خلال ما تمد به الرواية من تفاعلات وعلاقات، تنشأ عند الشخصية حتمية التردد على هذه الأماكن العامة التي يرتادها الفرد في أي وقت يشاء، حيث أن «الرواية تتخذ في عمومها أماكن متفتحة على الطبيعة، تؤطر بها الأحداث مكانا، وتخضع هذه الأماكن للاختلاف بغرض الزمن المتحكم في شكلها الهندسي.»٣٦، مما يعني أن الرواية أو الروائي في حد ذاته يستلزم منه اتخاذ أماكن مفتوحة على الطبيعة داخل الرواية، لأن هذه الأماكن ضرورية لسير الأحداث، كما أنها تفتح مجالا واسعا للشخصيات، حيث تخرجها من الأماكن الضيقة إلى أماكن أكثر رحابة، تحقيقا لغايات الرواية وأهدافها.

وسنقوم بترتيب هذه الأماكن على درجة انفتاحها من جهة، وكثافة حضورها في الروايات من جهة أخرى، ومن بين هذه الأماكن: الشوارع والطرقات، حيث يعد الشارع جزءا لا يتجزأ من المدينة أو أحد العلامات المكانية البارزة فيها، تفتح فيه الأبواب وتتحرك من خلاله الشخصيات وهو أكثر من جغرافيا مكانية، لأنه «الخيط الفاصل بين عالمين: عالم السر وعالم الجهر، إذ عند البيوت والمنازل ينتهي عالم الناس السري، ويبدأ عالمهم العلني، حيث يبدأ الشارع وتكتشف الأسرار وتعلن الأعماق عن خفاياها، إنه الشارع النابض بالحياة.»٣٧، فالشوارع أماكن مفتوحة تستقبل كل فئات المجتمع وتمنحهم عامل الحرية في التنقل، وسعة الاطلاع، والتبدل، وهي لا تقوم على تحديدات ولا حدود ثابتة.

ويمكن القول إن الأمكنة المفتوحة هي أمكنة واسعة شاسعة، تعطي الفرد الحرية في التصرف دون فرض ضغوط ولا قيود، كما أنها تمنح الفرد أيضا الراحة النفسية والطمأنينة، ذلك لأن أغلب الأماكن المفتوحة لها دلالات وتأثيرات واضحة ومختلفة على الفرد، سواء كانت إيجابية أو سلبية.

يعد المكان أحد الجوانب الرئيسية التي يستند إليها العمل الأدبي، ويبدو هذا التوجه جليا في الميدان الروائي، إذ لا يستطيع منجز العمل الروائي بأي حال من الأحوال الاستغناء عنه، سواء أكان على وجه الحقيقة أم ضربا من الخيال، ونظرا لدوره الأساسي في العمل الروائي، لا يمكن فصله عن بقية العناصر الروائية الأخرى، وإن اختلفت هذه العناصر في مدى الدور الذي تقدمه، فالمكان هو العمود الفقري الذي يربط أجزاء الرواية بعضها ببعض، ومحمد مفلاح -كغيره من الروائيين- قد أولى لعنصر المكان عناية كبيرة، حيث جاءت روايته (أيام شداد) غنية بهذا العنصر بأنواعه المختلفة (المغلقة والمفتوحة) وبدورنا نحن سنقوم بعرض هذه الأماكن كالتالي:

١- الأماكن المغلقة في الرواية:

لقد كان المكان المغلق حاضرا بقوة في رواية (أيام شداد)، حيث اختاره الروائي كميدان لحركة الشخصيات، وهذا المكان محدود بحدود تفصله عن الخارج، مما يجعله يتصف بالضيق، فتكون بذلك حركة الشخصيات فيه محدودة ومقيدة بما يسمح لها من ممارسة لخصوصيتها. وسنتتبع في ترتيبنا لهذه الأماكن حركة الشخصيات المحورية فيها، بتقديم الأماكن التي تم اختراقها من طرف البطل المكلف بعملية السرد، ومن بين هذه الأماكن نذكر:

- بيت البطل (دار الحوانة):

كان البطل شداد يعود إلى بيته طلبا للراحة بعد يوم عمل شاق، وحتى عند حديثه عن بيته لا يقدم لنا وصفا له ولمحتوياته، بل يذكر لنا الغرض في حدود ما يسمح به الحدث المنجز، وعلاقته بذلك الشيء، حيث جاء على لسانه: «وفي المسكن المتواضع.»٣٨، وقد جاء هذا الوصف في لحظات خاطفة، ممزوجا بلحظات السرد، حيث يصف بيته بالتواضع لبساطته، إلا أنه سكن ومأوى ، وقد جاء في صدد آخر: «جلست في دار الحوانة أستمع إلى أحاديث عائلتي عن أحداث المنطقة»٣٩، وفي هذا المثال دلالة على أن البطل شداد كان يشارك عائلته في كل شيء حتى في أبسطها، بساطة هذا البيت.

- الكوخ:

هو مسكن صغير كانت تملكه العائلة الشدادية إلى جانب بيتها (دار الحوانة)، وهو مكان تضع فيه عائلة البطل بعض

ما تمتلكه، حيث جاء على لسان البطل: «الكوخ الذي كنا نضع فيه كيس زقاو يحتوي على الحبوب بعدما نخزن كمية منها في مطامير حقل التين الشوكي خلف بيتنا بحوالي ألفي متر.»٤٠، وهذا يعني أن الكوخ كان بمثابة مخزن لبعض المستلزمات التي تملكها العائلة الشدادية، أكثر منه بيتا لها، ولكنه بعد وفاة سي الحبيب الطالب زوج العمة المازوزية أصبح بيت هذه الأخيرة وابنها هني الصغير، حيث: «سكنت عمتي المازوزية مع وحيدها في القربي (الكوخ).»٤١، وبالتالي أصبح هذا الكوخ بمثابة مأوى للعمة المازوزية وابنها، بعدما كان مخزن مؤونة.

- الخيمة الحمراء:

الخيمة الحمراء في رواية (أيام شداد) من الأماكن التي كان يتردد البطل عليها، وكانت الخيمة مخصصة لإقامة الاجتماعات واللقاءات بين أهل الدوار الذي يسكن فيه البطل ، حيث جاء على لسانه: «ازدادت اجتماعات الخيمة الحمراء.»٤٢، وما زاد في أهمية هذه الخيمة أن أهل الدوار كانوا يجتمعون فيها من أجل قضاء حوائجهم في السر، فكانت تقام فيها المجالس ويلتقي فيها الأكابر من القوم للحديث عن أحوال المنطقة، ناهيك عن حضور البطل لأول مجلس له فيها حيث جاء على لسانه: «وفي الخيمة الحمراء وأنا أحضر أول مجلس بالنسبة إلي، رأيت الحاج السنوسي ذا اللحية البيضاء، واستمعت إلى كلامه الهادئ.»٤٣.

- غار الفراشيح:

غار الفراشيح من الأمكنة المغلقة البارزة في الرواية، حيث كان المستعمر يقوم بتجميع الناس داخله، ثم يبدأ بتعذيبهم وحرقهم بشتى الطرق المفزعة، وكان هذا الغار مكانا مخيفا، وموحشا، حيث جاء على لسان الراوي: «التفتُّ نحو غار الفراشيح، كان المنظر مفزعا، تقيأت أمعائي، رأيت ألاف العساكر حول المغارة المحترقة.»٤٤.

مثَّل هذا المكان الموتَ بالنسبة لأهل القبيلة، نظرا لكثرة القتلى فيه والمحرقة التي حصلت بداخله، فلم يشفق جنود الاحتلال الفرنسي على أهل هذه المنطقة فقاموا بتعذيبهم، رجالا، ونساء، وشيوخا، وأطفالا، حيث جاء على لسان الراوي: «آلمني منظر الشيوخ، النساء والأطفال والمرضى والمعاقين وهم يتحركون بخطى سريعة نحو غار الفراشيح، كانوا في حالة رعب من وحشية بيليسي التي فاقت همجية التتار.»٤٥، وقد كانت وحشية بيليسي في حق هؤلاء المساكين مرعبة، وكانت الجرائم مؤلمة جدا، بالإضافة إلى هذا فقد كان الغار أبشع مكان بالنسبة للبطل شداد، ففيه تم قتل كل أفراد عائلته وخطيبته، حيث جاء على لسانه: «لا أدري ماذا جرى لي، شاهدت النيران تلتهم بجنون أكوام التبن، وأكداس الحطب التي وضعها العساكر أمام فوهة المغارة، كانت الرياح تدفع ألسنة النيران نحو الفوهة وكأنها في هذا اليوم الرهيب، تآمرت مع العدو على خنق الأبرياء.»٤٦، فبعد أن تجمع أغلب أهل القرية من نساء وأطفال وشيوخ في هذا الغار هربا من عساكر العدو وبطشهم، سهلت على هذا الوحش الكاسر مهمته، حيث أضرم النار في هذا الغار وجميع أهل القرية مجتمعون بداخله، وكانت نهايتهم على يد العدو الفرنسي الذي لا يرحم.

- الجامع:

هو أيضا من الأماكن المغلقة في هذه الرواية، فقد كان البطل شداد وسكان الدوار يزاولون فيه حفظهم للقرآن الكريم، وقد حفظ شداد فيه حوالي عشرين حزبا على يد الشيخ زيان، إلا أن شداد تخلى عن التعليم بعد تخريب الجامع، حيث جاء على لسانه « كنت في دوارنا الفوقاني كالمتوحد، حفظت عشرين حزبا من القرآن الكريم على يد الشيخ زيان، وتخليت أنا عن التعليم بعد تخريب الجامع.»٤٧، ودلالة الجامع تكمن في علاقة الجزائريين بدينهم حتى قبل أن يشتد عودهم، أما تخريب الجامع فيدل على وحشية المستعمر وحقده وكرهه لديننا الحنيف، من أجل منع المسلمين من تلقي تعاليم دينهم.

- المغارات:

هي عبارة عن أماكن صغيرة مثل الأكواخ، كان يجمع العدو الغاشم فيها مجموعة من المواطنين الجزائريين، ويقوم بحرقهم أحياء داخلها، وقد كانت هذه المغارات موجودة في كامل أقطار الوطن الجزائري، وقد كان حرق الناس داخلها من السياسات القمعية التي جاء بها الاستعمار الفرنسي في الجزائر، وجاء على لسان الراوي في هذا الشأن: «حك والدي قفاه، وتمتم بحزن كبير، الكولونيل كافينياك أحرق العزل في المغارة»٤٨، وهذا دال على أن الاستعمار كان يتعامل بوحشية مع الشعب الجزائري، حيث طبق عليه أبشع وسائل الإجرام، وقد جاء

في هذا الصدد قول الراوي: «كان والدي يتكلم بقلق كبير عن الجريمة البشعة التي صارت حديث الظهرة والقبائل المجاورة، وقال لنا بصوت خفيض: أحرق الوحش أبناء صبيح لم يرحمهم.»٤٩، وهذا يعني أن هؤلاء العساكر لم يرحموا أي فرد سواء كان صغيرا أم كبيرا، رجلا أم امرأة، فقد كانوا يجمعون كل هذه الأصناف في مغارات ويقومون بحرقها، وبالتالي كانت هذه الأمكنة بمثابة جهنم بالنسبة للشعب الجزائري، لأنهم رأوا فيها أبشع أنواع العذاب وأقساها.

في مقابل الذي ذكرناه عن الأمكنة المغلقة، اتخذت رواية (أيام شداد) بعض الأماكن المفتوحة إطارا لأحداثها، وهي أماكن منفتحة على الطبيعة، حيث تسمح للفرد بالتردد عليها في أي وقت وحين، دون قيد أو شرط، لكن دون الإخلال بالعرف الاجتماعي، أي دون ممارسة أي سلوك غير سوي يرفضه المجتمع، مثل: السرقة، والكذب، والعدوانية... وغيرها من السلوكات.

من الأماكن المفتوحة التي كان لها حضور أكثر من غيرها في رواية (أيام شداد) نذكر ما يلي:

- الجبل الشامخ:

هو المكان الوحيد الذي كان يلجأ إليه البطل لشدة تعلقه به، يقول البطل: «كنت كل يوم بعد صلاة العصر، أبتعد عن دوارنا الفوقاني وألجأ إلى جبل يطل على الجهات الأربع لمنطقتنا الجبلية.»٥٠. والجبل الشامخ من الأمكنة الرئيسية المفتوحة التي وظفها الروائي في عمله هذا، ذلك أنه كان مخصوصا ومتعلقا بشخصية البطل دون سواها، وهذا ما يؤكده المقطع التالي: «ظلت والدتي تنصحني بالابتعاد عن الجبل الشامخ، وكانت جدتي تساندها وتحذرني من المغاطيس القادمين من وراء البحر.»٥١.

- ينبوع الصفصافة:

يعد الينبوع من الأمكنة المفتوحة التي تَعَوَّدَ شداد الذهاب إليها للقاء خطيبته قمرة، وقضاء بعض الوقت معها بعيدا عن أعين العامة والمنطقة التي يقطنون فيها، حيث جاء على لسانه: «كنت أنتظر خطيبتي الهادئة قرب ينبوع الصفصافة الذي كانت تقصده صحبة صديقتها.»٥٢، مما يعني أن هذا المكان المفتوح الذي كان جزءا من الطبيعة الخلابة، ومشربا لسكان القرية، كان بالنسبة للعاشقين موضع تجاذب الأحاديث والبوح بما يختلج نفسية كل منهما.

- مدينة مليانة:

استعمل الروائي مدينة مليانة عند حديثه عن الأمير عبد القادر، حيث جاء في ذلك: «في مدينة مليانة كان للأمير عبد القادر مصنع للأسلحة شيد بعد معاهدة وادي التافنة»٥٣. ومليانة بطبيعتها الجبلية الخلابة والوعرة، كانت موضع مدح البطل، الذي تمنى زيارتها لاقتناء السلاح والدفاع عن الوطن، وهذا ما يؤكده قوله: «بعد زواجي، سيكون لي بندقية أشتريها من منطقة مليانة، وسأملك فرسا من خيول قبيلة فليتة.»٥٤. وهذا المكان كان بالنسبة لشداد مدد المقاومة، حيث جاء في قول أخر: «غفوت مدة دقائق طويلة رأيت فيها نفسي أسبح في سماء غائمة، كنت أحمل مدفعا من مخلفات مصنع الأمير بمليانة لم أشعر بثقله، وأطلقت منه القذائف على عساكر المخيم.»٥٥.

- مدينة وهران:

تعتبر مدينة وهران من الأمكنة التي تعوَّد شداد على ذكرها في مجرى الرواية، لأنها تحمل دلالات كبيرة، فقد تحدث عن المعارك التي جرت فيها، وعن قضية تحريرها من الغزاة الأسبان، وقد كان شداد يحلم كثيرا بزيارتها، حيث جاء على لسانه: «لم يحالفني الحظ لزيارة مدينة وهران التي كنت أحلم بالتجول في أزقتها، وبزيارة ضريح وليها الصالح سيدي الهواري.»٥٦. وفي موضع آخر من هذا العمل الروائي، تظهر الغاية من ذكر مدينة وهران في تمجيد عائلة شداد أبا عن جد، كيف لا وهم الذين قادوا المقاومة ضد الإسبان، يقول الروائي: «وتضيف متنهدة: حدثني عنهم جدك المرحوم سي قادة، وأخبرني أيضا عن مشاركته مع والده سي بوجمعة في معارك تحرير وهران من الأسبان.»٥٧.

وفي الأخير، يمكن القول إن محمد مفلاح وهو يختار أمكنة روايته (أيام شداد)، كان يسعى لتمييزها عن غيرها، حيث حاول الاقتراب بنا من واقعها، ولم يركز على شكلها الهندسي كثيرا مقارنة بتركيزه على الحدث الذي حصل فيها أو الشخصية التي تحركت بداخلها، مع التكثيف في عرض الأماكن المغلقة مقارنة بالمفتوحة، وفي هذا دلالة مهمة تحيل على التضييق والخناق الذي كان يعيشه الشعب الجزائري جراء سياسات المستعمر الفرنسي التعسفية.

الهوامش

١- أبو الفضل جمال الدين بن مكرم بن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، مج٣، ١٩٥٥م، ص ٨٣.

٢- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

٣- حنان محمد موسى حمودة، الزمانية وبنية الشعر المعاصر (أحمد عبد المعطي أنموذجا) ، عالم الكتب الحديثة للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ٢٠٠٦م، ص ١٧.

٤- سورة الزمر، من الآية ٣٩.

٥- سورة مريم، من الآية ٢٢.

٦- ابن دريد أبو بكر محمد بن الحسن الأزدري البصري، جمهرة اللغة، مادة (كمن)، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية حيدر أباد، بغداد، ط١، ١٣٤٥ه، ص ٥١.

٧ ، ٨- السيد مرتضى الزبيدي، تاج العروس (باب النون)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، د ط، ١٩٢٢م، ص ٤٨٨.

٩- فيليب فرانك، الصلة بين العلم والفلسفة، تر: علي ناصف ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٧٤م، ص ١٧٢.

١٠- المرجع نفسه، ص ١٧٣.

١١- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ١٩٧٩م، ص ١٩١.

١٢ ، ١٣ - صفوح خير، الجغرافية (موضوعاتها ومناهجها وأهدافها)، دار الكتاب المصري، القاهرة، د ط، ٢٠٠٢م، ص ٥٣.

١٤- عز الدين إسماعيل، التفسير النفسي للأدب، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠٠م، ص ٧٤.

١٥- حسن مجيد الربيعي، نظرية المكان في فلسفة ابن سينا، مراجعة وتقديم: عبد الأمير الأعسم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٩١٧م، ص ١٩.

١٦- أحمد الشنتاوي وإبراهيم زكي، دائرة المعارف الإسلامية، يصدرها باللغة العربية ويراجعها: محمد مهدي علام، وزارة المعارف، (د ب)، مج ١، ١٩٩٣م، ص ١٢٠.

١٧- سيزا قاسم، بناء الرواية (دراسة مقاربة في ثلاثية نجيب محفوظ)، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م، ص ٧٤.

١٨- المرجع نفسه، ص ٧٥ .

١٩- حميد لحميداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٣، ٢٠٠٣م، ص ٥٣.

٢٠- المرجع نفسه، ص ٦٥.

٢١- عثمان بدري، وظيفة اللغة في الخطاب الروائي الواقعي عند نجيب محفوظ، المؤسسة الوطنية للفنون، الجزائر، ط١، ٢٠٠٠م، ص ٩٢.

٢٢- غاستون باشلار، جماليات المكان، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، ط٥، ٢٠٠٠م، ص ٢١.

٢٣- حميد لحميداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، ص ٧٥-٧٦.

٢٤- المرجع نفسه، ص ٦٢.

٢٥- عبد الملك مرتاض، دراسة سيمائية تفكيكية لقصيدة (أين ليلاي) لمحمد العيد آل خليفة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٢م، ص ١٠٢.

٢٦- سيزا قاسم، بناء الرواية، ص ٧٥.

٢٧- إبراهيم محمود خليل، النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك، دار المسيرة، الأردن، د ط،٢٠٠٣م، ص ١٨٥.

٢٨- فهد حسين، المكان في الرواية البحرينية، فراديس للنشر، البحرين، ط١، ٢٠٠٣م، ص ١٦٣.

٢٩- حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٢، ٢٠٠٩م، ص ٤٠.

٣٠- غاستون باشلار، جماليات الصورة، التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١٠م، ص ١٦٣.

٣١- المرجع نفسه، ص ١٦٦.

٣٢- أحمد زنبير، جماليات المكان في قصص إدريس الخوري، التنوير للطباعة، الرباط، المغرب، ط١، ٢٠٠٩م، ص ٥٣.

٣٣- الشريف حبيلة، بنية الخطاب الروائي، عالم الكتاب الحديث، الأردن، ط١، ٢٠١٠م، ص ٢٠٤.

٣٤- حميد لحميداني، بنية النص السردي، ص ٧٠.

حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، ص ٧٩. ٣٥-

٣٦- الشريف حبيلة، بنية الخطاب الروائي، ص ٢٤.

٣٧- أحمد زنبير، جماليات المكانفي قصص إدريس الخوري، ص ٤٦.

٣٨- محمد مفلاح، أيام شداد، دار القدس العربي، وهران، ٢٠١٦م. ص ٦.

٣٩- المصدر نفسه، ص ١٣.

٤٠ ، ٤١ - م نفسه، ص ١٥.

٤٢- م ن، ص ٢٣.

٤٣- م ن، ص ٣٤ .

٤٤- م ن، ص ٨٩ .

٤٥- م ن، ص ٨١.

٤٦- م ن، ص ٨٣.

٤٧- م ن، ص ٩.

٤٨،٤٩- م ن، ص ١٣.

٥٠- م ن، ص ٥.

٥١- م ن، ص ١٧.

٥٢- م ن، ص ٧.

٥٣- م ن، ص ١٠.

٥٤- م ن، ص ن.

٥٥- م ن، ص ٢٢.

٥٦- م ن، ص ٩-١٠.

٥٧- م ن، ص ١٧ .